تحالف المغول مع
الصليبيين ضد الإسلام وآثاره
(دراسة تاريخية فكرية)

The Mongols' Alliance with the Crusaders against Islam and its Effects
(An Intellectual Historical Study)

أ. م. د. برهان جمعه درويش محمد

Asst. Prof. Dr. Burhan Jumaa Darwish Muhammad

قسم تربية جلولاء/ المديرية العامة لتربية ديالى

Jalawla Education Department/
Diyala Directorate of Education

palaniburhan@gmail. com

الملخص

كان من آثار ظهور المغول والصليبيين فى القرن الثالث عشر الميلادي كقوة جديدة على مسرح الأحداث، تعرض العالم الإسلامي إلى حملات عسكرية صليبية ومغولية، ذو أهداف مسيحية وغايات تنصيرية، والدخول في حظيرة الكنيسةالكاثوليكية، والقيام بحرب صليبية عامة لانتزاع الأراضي المقدسة من الحكم الإسلامي، وقد لقيت هذه الفكرة اعتباراً عظيماً في ذلك الحين ولهذا السبب أرسل البابا إنوسنت الرابع (١١٩٥-١٢٥٤م) عدة بعثات وحذاحذوه ملك فرنسا لويس التاسع (١٢١٤-١٢٧٠م).

وكان لسقوط بغدادعام (٦٥٦ه/ ١٢٥٨م) في ايدي المغول صدى قوياً على فئات المجتمع الإسلامي، خاصة عندما أدركو جيداً هدف الغزو الصليبي والمغولي الأرض والعقيدة، وأن حملات المغول هذه، لم تأتي من فراغ، ولا فجأة، وإنما بدعوة وتنسيق مع مسيحيي أوروبا، فكانت أستجابة المسلمين للجهاد بكل الوسائل المشروعة واضحة، فأيٌ برنامج يحتاج لعقائد وثقافة تدفعه، وأن أية أمة تريد أن تنهض من نكستها لابد أن تسترجع ذاكرتها التاريخية، ومن الضرورات إيجاد الكتب والبحوث النافعة في عالم الحوار والصراع والجدال مع اليهود والنصارى.

قد حان الوقت ليتعلم أبناء هذه الأمة من ماضيهم، لتستخلص منها الدروس والعبر في حاضرها وتستشرف مستقبلها، وليعرفوا أن وحدتهم هي الأساس لمواجهة من يطمع بالأسلاب والغنائم، في بلاد لاتمت له بصلة، أن الإسلام قادر في أية لحظة من إعادة دوره الحضاري والقيادي، عندما تتوافر فيها النية والإيمان الصادق، والالتزام المسئوول من إخراج الشعوب من الجور والظلم إلى عادل الإسلام.

الكلمات المفتاحية: المغول، الصليبيين، تحالف، الإسلام

Abstract

One of the effects of the emergence of the Mongols and Crusaders in the thirteenth century AD as a new force on the scene was that the Islamic world was exposed to Crusader and Mongol military campaigns. With Christian aims and christianization, and to enter the fold of the Catholic Church, and to wage a general crusade to seize the Holy Lands from Islamic rule. This idea was held in great consideration at that time, and for this reason Pope Innocent IV (1195-1254 AD) sent several missions, and King Louis IX of France (1214-1270 AD) followed suit. The fall of Baghdad in (656 AH/ 1258 AD) into the hands of the Mongols had a strong impact on the Islamic community, especially when they realized well the aim of the Crusader and Mongol invasion of land and faith, and that these Mongol campaigns did not come out of nowhere, nor suddenly, but rather through an invitation and coordination with the Christians of Europe. The Muslims' response to jihad by all legitimate means was clear. Any program needs beliefs and culture to drive it, and any nation that wants to rise from its setback must retrieve its historical memory, and it is necessary to find useful books and research in the world of dialogue, conflict and debate with the Jews and Christians.

It is time for the sons of this nation to learn from their past, to extract lessons and morals from it in their present and to look forward to their future, and let them know that their unity is the basis for confronting those who covet spoils and plunder in countries that have no connection to them. Islam is capable at any moment of restoring its civilizational and leadership role, when there is the intention, sincere faith, and responsible commitment to leading peoples from injustice and oppression to the justice of Islam.

Keywords: Mongols, Crusaders, alliance, Islam

المقدمة

تعرض العالم الإسلامي، خلال القرون الوسطى إلى حملات عسكرية صليبية من جهة الغرب، ومغولية من جهة الشرق، تمثل جانب خطير تهدد الأمة المسلمة، لم تكن الأهداف المسيحية عنهم ببعيدة، وبرغم تعدد هذه الدراسات وتميزها، إلا أنها لم تعالج موضوع معالجة مستقلة، وألاهم من ذلك ان الدراسات التاريخية المماثلة لهذا الدراسة لاتزال قليلة فمن أولاً الدراسات التي ظهرت دراسة الزهاوي، عباس عبد الستارعبد القادر، التحالف الصليبي المغولي ضد العالم الإسلامي (٦٥١-٧٢٢ه/ ١٢٥٣-١٣٢٢م)، مجلة التراث العلمي العربي، مج، ٢٠١٤م، ثم سار باحثون على هذا المنهج، كدراسة، عبد العزيز بن أحمد بن محسن الحميدي كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، وتأتي دراستي هذا تواصلاً لما قام به أولئك الباحثون في هذا المجال، فالموضوع بحاجة إلى دارسة متأنية متخصصة مستقلة من خلال الاعتماد على المصادر العربية واللاتينية والسريانية وألارمنية.

وكذلك مناقشة تصورات الباحثين المحدثين، بعد هذه المقدمة تفرض فكرة الدارسة تقسيمهاعلى مبحثين المبحث الاول، ظهور المغول فى القرن الثالث عشر الميلادي كقوة جديدة على مسرح الأحداث، واماالمبحث الثاني تضمن، تعاون الصليبي المغولي، وأهدافها المسيحية في القرون الوسطى، ثم خاتمة، فقائمة المصادر والمراجع.

مشكلة البحث: -وكما هو متوقع فأن البحث في هذا المجال لايخلو من الصعوبة، الدراسات فيه قليلة، ومن المؤرخين الذين كانت معلوماتهم ذات قيمة ومدعمة بالوثائق والسجلات عن المغول هو كتاب

(جامع التواريخ) الذي كتبه باللغة الفارسية المؤرخ الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني (١٢٤٧-١٣١٨م)، ولولا هذا الكتاب لجهلنا الشيء الكثير عن المغول لذا يعد من أهم الكتب.

أهمية البحث والحاجة: - تتجلى أهمية هذا الدراسة تسليط الضوء على التحالف بين مسيحي الغرب الأوروبي، وبين المغول الذين لم تكن الأهداف المسيحية عنهم ببعيدة، وأن حملات المغول هذه، لم تأتي من فراغ، ولا فجأة، وإنما بدعوة وتنسيق مع مسيحيي أوروبا، لأن ذلك يمثل الفرصة العظيمة لهم للإطباق على العالم الإسلامي من شرقه بواسطة المغول، ومن غربه بواسطة الحملات الصليبية.

«المبحث الأول»

ظهور المغول فى القرن الثالث عشر الميلادي كقوة جديدة

منذ أن منّ اللهّ تعالى على خلقه بنبي الرحمة محمدﷺ، ومنذ أن أضاء نور الإسلام جزيرة العرب، فعمت الدعوة الإسلامية، وزال عنها نفوذ النصرانية ودخل جل أهلها في الإسلاَم، وزالت اليهودية من الجزيرة العربية، وزاد العداء النصراني حدة للإسلام خصوصا في عهد السلاجقة، حيث تمكن سلطان ألب أرسلان من أن يهزم الإمبراطور رومانوس البيزنطي في معركة ملا ذكرد عام (٤٦٣ هـ/ ١٠٧١م) وأن يهدد العاصمة (القسطنطينية)، وبادرت أوروبا بشن حرب صليبية، تعلقوا بآمال ارتبطت باحتمال مساعدة مغولية وثنية تعيد إليهم ما فقدوه.

ظهرت فى القرن الثالث عشرالميلادي قوة جديدة طاغية جبارة في المشرق تتفجر عنفا ورغبة في سفك الدماء (ابن الأثير، عبد الكريم، ١٩٧٨، ص، ٤٥)، هي قوة المغول، وقد نشأوا في هضبة منغوليا، في أواسط آسيا ما بين جنوب سيبريا وشمال التبت وغرب منشوريا وشرق تركستان (طه بدر، ١٩٩١، ص، ٧٣)، بقيادة جنكيز خان، الذي نظم الدولة ووضع قانون اليساق (القلشقندي، أحمد، ١٩١٥، ص ص، ٣١٠-٣١٢)، توفي عام (٦٢٣هـ/ ١٢٢٣م) فانساح خلفاؤه في كل اتجاه، ومنهم هولاكو وخلفائه فجرفوا ما صادفوه أمامهم، حتى قال عنهم المؤرخ ابن الأثير: وقد بقيت عدة سنين معرضاَ عن ذكر الحادثة، خروج التتر إلى بلاد الإسلام، استعظاماَ لها، كارها لذكرها، فأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه نعي الإسلام ؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا... وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنّة... (ابن الأثير، ١٩٧٨، ص ص٣٢٩، ٣٧٠).

وقد أورد توماس أرنولد، وصفا لقسوة الهجمة المغولية على بلاد الإسلام جاء فيها: لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطباً أشد هولاً من غزوات المغول، فقد انسابت جيوش جنكيزخان انسياب الثلوج على قمم الجبال واكتسحت في طريقها الحواضر الإسلامية، وأتت على ما كان لهامن مدينه وثقافة لم يتركوا وراءهم من تلك البلاد سوى خرائب وأطلال بالية Arnold)، ١٩٣٥، ص ص ٢١٨ - ٢١٩)، ثم توسعوا أيضا في بلاد النصارى كروسيا وهنغاريا وغيرها وقتلوا، لا يفرقون بين جنس وجنس، فلا يعني الإسلام ولا النصرانية لهم شيئا (طة بدر، ١٩٩١، ص ص٥-٦).

ومع كل ذلك فقد رأى فيهم الصليبيون، حليفا طبيعياَ، في صراعهم ضد المسلمين، يشكلون قوة هائلة، بدأالصليبيون في الاتصال بالمغول، وتبادل الهدايا ودعوتهم إلى الدخول في النصرانية (عاشور، ١٩٦٣، ص ١٠٩٨)، بدأت بوادر هذا التحالف منذ سنة (١٢٢٠م) في عهد جنكيز خان مع البابا هونوريوس الثالث وقد ذكر البابا لأتباعه سنة (١٢٢١م) بأن قوات آتية من الشرق الأقصى لإنقاذ الأرض المقدسة وهنا يقصد بيت المقدس، لكن بعد وفاة جنكيزخان سنة (١٢٢٧م) قسمت امبراطوريته بين ورثته وحدثت بينهما حروب ونزاعات داخلية، لكن بقيت محاولات الصليبيين لإعادة هذا التحالف حتى استقر الحكم بيد الخان الأكبر (كيوك).

ومن هذه المحاولات ما فعله البابا انوسنت الرابع، innocent(٦٤٤ه/ ١٢٤٥م) حين أرسل إلى توراكيتا خان في قرة قوروم (القلقشندي، ص٤٨٠)، مبعوثاً هو الراهب الفرنسيسكاني حنّادي بلانوكاربنيس john de Plano carpinis يدعوه للدخول في الديانة النصرانية، وكما أرسل في سنة (٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م) سفارة إلى بيجو زعيم مغول القوقاز تدعوه إلى الدخول في النصرانية (Lamb، 1965، ص ص ٢٠٣ - ٢١١)، يبدو أن هذه المحاولات قد لقيت صدى في نفوس الإيلخانات، حيث قيل أن كيوك (٦٤٤-٦٤٦ هـ/ ١٢٤٦-١٢٤٨م).

قد اعتنق النصرانية على المذهب النسطوري، وتبعه بعض الوزراء والقواد، مما شكل نصراً مبكراً للنصرانية، وكان في ذلك كل الخطر على المسلمين وأصبحوا كما يتمنى الصليبيون بين فكي كماشة (Setton، 1958، ص ٧٢٢)، وكان الصليبيين يريدون إيقاف هجمات المغول نحو جورجيا وارمينيا وتحويلها إلى الشرق باتجاه الخوارزميين ثم إلى بغداد والشام.

وكانت المفاجأة أن في سنة ١٢٤٥م وصل وفدًا مغوليًا إلى مدينة ليون يطلب التحالف مع القوى الصليبية ضد المسلمين، حيث كان المغول يخططون لمهاجمة الخلافة العباسية، وكانوا يرغبون في أن يقوم الصليبيون بمهاجمة المسلمين في مصر والشام لإعاقتهم عن مساعدة العباسيين أثناء هجوم هولاكو عليهم، وقد تحقق لهم هذا الهدف بتدمير العراق والشام.

الغزو المغولي لبغداد (٦٥٦–٩١٩هـ/ ١٢٥٨– ١٤٠٥م)

كانت حملات المغول التي اندفعت لغزو العالم الاسلامي متزامنة مع حكم أربعة من خلفاء الدولة العباسية منذ سنة (٦١٨ –٦٥٦ه/ ١٢٢١– ١٢٥٨م) فكان اول انطلاقهم نحو تلك الديار متزامنا مع حكم الخليفة الناصرلدين الله (٥٧٥–٦٢٢ه/ ١١٨١–١٢٢٥م) اذ كان في عهده بداية اندفاع جنكيز خان نحو الدولة الخوارزمية (أبن كثير، ٢٠٠٢، ص. ١٨٩)، ثم جاء من بعده ولده الظاهر لأمرالله عام (٦٢٢ه/ ١٢٢٥م) وكان رسله تتعاقب للصلح مع آخر سلطان خوارزمي، واعقبه بعد وفاته أبنه المستنصر بالله (٦٢٣–٦٤٠ه/ ١٢٢٤–١٢٤٤م).

لم تكن لديه سياسة مستقرة خاصة فيما يخص مجابهة الخطر المغولي القادم، وفي عهده اصبحت أذربيجان (الحميري، عباس، ١٩٨٤، ص٢٠) قاعدة لتجمع القوات المغولية التي لم تكن بعيدة عن العراق (السيوطي، عبدالحميد، ١٩٨٧، ص٣٠٩) وقد حاولت القوات المغولية ان تتعرض ثمان مرات لمناطق مختلفة من البلاد الاسلامية واطراف

العراق خلال فترة حكم الخليفة المستنصربالله ما بين سنة (٦٢٨-٦٤٠ه/ ١٢٣٠-١٢٤٤م) (أبن الفُوطي، ١٩٣١، ص ٢١٢) وبعد وفاة الخليفة المستنصر بالله جاء من بعده أبنه الخليفة العباسي الأخير المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦ه/ ١٢٤٢-١٢٥٨ م) وكانت تلك الفترة من الفترات المظلمة الحالكة الظلام في تاريخ الدولة العباسية، اذ تكالب عليها الأعداء من كل حدب وصوب، وكان المسيطر والغالب على شؤون الحكم على مايبدو بعض رجال الديوان الحاكم (ابن الجوزي، ١٩٥١، ص١١) وصارت قيادات الجيش وأفراده في تلك المرحلة من الاتراك (فرطوس، ١٢٦٥، ص١٢٤).

وتمكن المغول من الوصول بقواتهم إلى حدود العراق الشمالية قبل أربعين سنة من احتلال هولاكو لبغداد عام ١٢٥٨م، وكان المغول قد أصطدموا بالمسلمين غربي إربيل سنة (٦٢٩ه/ ١٢٣١م)، وحول إربيل نفسها سنة (٦٣٣ه/ ١٢٣٥م)، وأجتاحوها سنة (٦٣٤ه/ ١٢٣٦م)، وارتكبوا فيها الفظاع، أن مجيء المغول مع نهاية عصر العباسيين إلى العراق والشام قد جعل الكُرد في مقدمة الأمم التي تواجه هذا الغزو المغولي في أطراف العراق، وقد بذلوا كثيرا من دمائهم بحسب قدرتهم وإمكاناتهم المتواضعة أمام الغزو المغولي الجرار، ووصلوا إلى خانقين سنة (٦٣٥ه/ ١٢٣٧م) وهزموا فيها جيوش الخليفة المستنصربالله (ت٦٤٠ه) ثم اجتاحوا أطرفها سنة (٦٤٧ه) ووصلوا إلى نواحي بغداد، وفي سنة(٦٥٥ه) قصد بغداد، ثم قفل راجعاً إلى همذان، وأرسل رسالة إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله يتهدده ويتوعده، لكن الخليفة المستعصم كان غارقاً في أوهامه، وعجزاً عن تقدير قوته الحقيقية تقديراً دقيقاً فتارة كتب إلى هولاكو "ألا ليعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب، ومن الملوك إلى الشحاذين، ومن الشيوخ إلى الشباب، ممن يؤمنون بالله، ويعملون بالدين، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي"وتارة أخرى قال المستعصم لوزيره مؤيد الدين العلقمي الذي نصحه بأرسال الهدايا الثمينة إلى هولاكو لاسترضائه: " لاتخش القضاء المقبل، ولاتقل

خرافة، فإن بين وبين هولاكو وأخيه منكوقاآن صداقة وألفة، لاعداوة وقطيعة، وحيث إنني صديق لهما فلابد أنهما أيضاً يكونان صديقين وموالين لي"(رشيدالدين، نشأت، هنداوي، ١٩٦٠، ص. ٢٨١)، وفي سنة (٦٥٥ه) نفسها قرر هولاكو فتح بغداد، فشن الهجوم عليها من محورين أثنين يقعان في كُردستان: -

المحورالأول- هومحور الموصل- إربل- بغداد، فأمر بأن تتحرك جيوش جرماغون وبايجو ئويان اللذان كانت معاقلهما في بلاد الروم وأن تسير على الميمنة إلى الموصل عن طريق إربل، ثم تعبر الموصل وتعسكر في الجانب الغربي من بغداد، من طريق شهرزور ودقوقاّ.

المحور الثاني_هو محور كرمنشاه- حلوان-خانقين- بغداد، ويذكر الهمذاني أنه في أوائل المحرم سنة (٦٥٥ه)، سار هولاكو بالجيوش عن طريق كرمنشاه وحلوان، وكان في ركابه كبار الأمراء، وعندما بلغ مدينة أسد أباد أوفد رسولاً يدعو الخليفة مرة أخرى للحضور، فكان الخليفة يماطل ويتعلل... ثم عسكر هولاكو بجنوده على شاطئْ نهر حلوان في التاسع من شهر ذي الحجة سنة (٦٥٥ه)، وفي تلك الأثناء أستولى القائد المغولي كيتوبوقا على كثير من بلاد لورستان (موطن الكُرد) طوعاّ وكرهاّ، وفي سنة (٦٥٦ه/ ١٢٥٨م) أحتل المغول بغداد، وأعملوا فيها يد الدمار والسلب والنهب وسفك الدماء، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله بطريقة مهينة، وتم لهم ذلك بعد أن أحتلوا مناطق كردستان، في الوقت الذي كان هولاكو يحاول فتح بغداد كلف القائد أرقيو ثوبان (أريق نوين) بفتح قلعة إربل، واستعان بصديقهم بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل (أرمني الأصل) وكان الملك العادل (أخو صلاح الدين) يسيطر على مناطق حران والرها وميافارقين، ونصيبين، والخابور، وبات واضحاً أن مناطق كردستان كانت مدخل المغول إلى العراق، فلما أقتربوا من ميافارقين أرسلو إلى الملك الكامل الأيوبي بدعوته إلى الاستسلام، فرفض قائلا: إنني لن أنخدع بكلامكم المعسول، ولن أخشى جيش المغول، وسأضرب بالسيف مادمت حياً" (طقوش، ٢٠٠٨، ص٤٠٧).

وتصدى سكان المدينة للهجوم المغولي، فسقطت أخيراّ بين أيدي المغول، وقبض على الملك الكامل، وأقتيد إلى هولاكو، وكان هذا خانقاً عليه أشد الخنق، وقد عنف هولاكو الملك الكامل، ثم أمر بتقطيعه إربا إربا، وكان المغول يضعون أعضاء جسده المقطوعة في فمه، حتى هلك وكان ذلك سنة (٦٥٧هـ) وكان الملك الكامل زاهداً، عابداً، يعيش من أجر الحياكة (الهمذاني، ص ص. ٣٢٢-٣٢٣)، وكان الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦ه/ ١٢٤٢-١٢٥٨م) ضعيفا، قليل المعرفة والتدبير والتيقظ، رغم تدينه (الكتبي، ١٩٧٤، ص. ٤٩٦).

وكان يعتقد أن مصير المغول هو الزوال على غرار السلاجقة والبويهين قبلهم، وأن الخلافة العباسية مستمرة إلى يوم القيامة (الهمذاني، ص. ٢٧٥)، بينما كان يتوجب عليه الخروج للقاء المغول عند تخوم خراسان، قبل أن يغزوه في عقر داره، ولم يكتف هولاكو بحشد جيش كبير يتألف من مائتي ألف واتخاذ معسكره في ظاهر بغداد لجهة الشرق، بل تمكن من أستمالة بعض الأمراء الأيوبيين وفي مقدمتهم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، كما أفاد من الانقسام المذهبي داخل بغداد، وبخاصة داخل مقر الخلافة، حيث اشتد الصراع بين الدوادار الصغير مجاهد الدين أبيك يؤيده سليمان شاه بن برجم الأبوائي الذي ارتأى مواجهة المغول وقتالهم، وبينما الوزير مؤيد الدين بن العلقمي (ابن العبري، ١٩٥٨، ص٢٥٥) تمكن من اقناع الخليفة العباسي بالخروج من بغداد للقاء هولاكو الذي وعده بالأمان.

كانت المواجهة بين المغول والعباسيين غير متكافئة، لذلك حلت الهزيمة بجيش بغداد ولقي أثنا عشرألفا مصرعهم في ساحة القتال، وفي يوم الجمعة ٢صفر٦٥٦ه/ ٨ شباط ١٢٥٨م، أرسلت رؤوس سليمان شاه والدوادار الصغير وتاج الدين بن الدوادار الكبير إلى الملك الرحيم بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل ليعلقها على أسوار المدينة (الهمذاني، ص٢٩٠)، وفي يوم الأحد ٤صفر٦٥٦ه/ ١٠ شباط١٢٥٨م، خرج الخليفة المستعصم بالله من بغداد ومعه ألف ومائتي شخص من العلماء والوجهاء، فلما

وصلوا ألى معسكر هولاكو، ألقى القبض عليهم ثم قتلوا عن أخرهم (الجوزجاني، ١٨٦٤، ص٤٢٧-٤٢٨)، باستثناء الخليفة خرج من بغداد ومعه أبناؤه الثلاثة، فلاطفه هولاكو (أبن الوردي، ١٩٩٦، ص١٩٦)، وطلب إليه أن ينادي أهل بغداد بإلقاء السلاح والخروج لإحصائهم، وكان القتل من نصيب الذين خرجوا بينما أستبقى الخليفة وأولاده.

وفي يوم الأربعاء٧صفر٦٥٦ه/ ١٣ شباط ١٢٥٨م، اقتحم المغول مدينة بغداد من الشرق والغرب فاستبيحت أربعين يوما، حيث خربت المساجد للحصول على قبابها الذهبية، ومعها مشهد الإمام موسى الكاظم عليه السلام، وقبور الخلفاء في الرصافة، كما هدمت القصور، وارتكبت المذابح الجماعية حتى بلغ عدد الضحايا ثمانين ألفا (الذهبي، ٢٠٠٥، ص١٢٣)، ولم ينج إلا من اختفى في بئر أو قناة أو مقبرة، ومع ذلك تعرض هولاء للوباء الشديد بعد خروجهم فمات معظمهم (أبن كثير، ٢٠٠٢، ص٢٠٣).

مما لاشك فيه أن الخليفة المستعصم لقي مصرعه يوم الأربعاء ١٤ صفر٦٥٦/ ٢٠ شباط ١٢٥٨م (ابن العبري، الأيوبي، بردي، يوسف١٩٦٣، ص٤٩-٥٠) بعد أن دل هولاكو على ما اجتمع من كنوز العباسيين طيلة أكثر من خمسة قرون (١٣٢-٦٥٦ه/ ٧٥٠-١٢٥٨م) انتهت هذه الأحداث بقتل الخليفة وابنيه أبي العباس أحمد وأبي الفضائل عبد الرحمن، وأسر ابنه الأصغر مبارك، وأخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم، ثم أستسلمت الحلة والكوفة والموصل، وبذلك انتهت الخلافة العباسية في بغداد (الحنبلي، الهمذاني، ص ص٨٢٢-٢٩٢)، أما الوزير أبن العلقمي شعر بالندم الشديد، فمات مريضاً في جمادي الأول ٦٥٦ه/ ١٢٥٨م وهي السنة التي سقطت فيها بغداد (حمود و سوزي ٢٠١-، ص٨٨).

تعرضت الثقافة العربية لخسارة فادحة مع سقوط بغداد، واحراق إلوف الكتب والمحفوظات أو إغراقها في نهر دجلة، إضافة إلى قتل العلماء والأدباء والصناع، حيث هاجر من نجا منهم إلى القاهرة التي تحولت إلى مركز جديد للعروبة والإسلام، تمكنت

من تحت قيادة المماليك من قهر المغول وإنقاذ المشرق الإسلامي، تحول جيش المغول إلى أسطورة القوة التي لاتقهر، منذ سقوط بغداد والقضاء على الخلافة العباسية يوم الأربعاء ٧ صفر٦٥٦ه/ ١٣ شباط ١٢٥٨م، وسقوط حلب في صفر٦٥٨ه/ ٢٥ كانون الثاني ١٢٦٠م، ودمشق يوم الاثنين ١٦ ربيع الاول٦٥٨/ أول آذار ١٢٦٠م، ثم سائر مدن بلاد الشام، ولم يتحول المغول إلى هذه الأسطورة، لولا سياسة العنف والرعب التي جعلها مؤسس دولتهم جنكيزخان من خصائص نظام الحكم، فاقام من المذابح الجماعية نظاما ثابتا مشروعا ضمن سياسته الحربية، ويكفي أن بغداد وحدها أستبيحت أربعين يوما وأحرقت بعد قتل نحو ثمانين ألفا من سكانها في مذبحة جماعية.

عندما أمر هولاكو بقتل المستعصم بالله، وهو آخر خليفة عباسي في بغداد جرت عملية القتل دون إراقة دمه جريا على عادة المغول في قتل الأمراء والملوك والقادة العظام لذلك وضع المستعصم في غرارة ثم رفس بأرجل الخيل إلى أن مات (الجوزجاني، ص٤٢٧-٤٣٠).

في يوم الأربعاء ١٤ صفر ٦٥٦ه/ ٢٠ شباط ١٢٥٨م، وبالمقابل أبدى بعض الأمراء الأيوبيين، ضروبا من البطولة والشجاعة أثناء الصدام مع المغول، فأبدى الملك الصالح الأيوبي صاحب الموصل ضروبا من البطولة والشجاعة عكس أبيه الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ الذي هادن المغول، فقد تحلف الصالح الأيوبي مع السلطان المماليك الظاهر بيبرس للوقوف في وحه المغول الذين تحركوا بقيادة " سنداغو" وأنزل الهزيمة بهم.

وشاءت الظروف أن يطلع المغول على سير القوة المملوكية، فنصبوا كمينا وقضوا عليها، ورغم ذلك قاومت قلعة الموصل ستة أشهر، وبعد استيلاء المغول على الموصل سنة ٦٦٠ه/ ١٢٦١م، اضطر الملك الصالح للاستسلام، فعمد المغول إلى قتله بأبشع صورة، وضعوا الملك الصالح بن بدر الدين لؤلؤ، في دهن ولباد، وألقوه في الشمس

حتى تحول الدهن إلى ديدان فشرعت هذه الديدان تأكل جسده حتى مات بعد شهر، كما شقوا أبنه نصفين على ساحل نهر دجلة وكان طفلا في الثالثة (الهمذاني، ص٣٢٨).

وشاءت الظروف التاريخية أن يواجه المماليك المغول فأتبعوا سياسة المغول أنفسهم في الاعتماد على العنف والرعب حتى تمكنوا من إنزال الضربة الأولى والموجعة التي زعزعت أسطورة "جيش المغول لاتقهر" في عين جالوت سنة ٦٥٨ه/ ١٢٦٠م (المقريزي، ١٩٧٥، ص٤٢٥)، ولكن ظهور الزعامة التاريخية لمغول من فترة لأخرى، كانت تعيد امتداد أمبراطوريتهم عن طريق العنف والرعب، ومع نشأة المماليك الثانية، وفي عهد أول سلاطينها الظاهر برقوق (٧٨٤-٨٠١ ه/ ١٣٨٢-١٣٩٨م) ظهر الخطر المغولي مجددا بقيادة تيمورلنك الذي تمكن من أجتياح بغداد مرتين الاولى سنة (٧٩٥/ ١٣٩٣م) حاصر بغداد مدة شهرين بدءا من شعبان ٧٩٥ه/ حزيران ١٣٩٣م، قبل أن يدخلها ويقتل معظم سكانها ويخرب أسوارها وجوامعها وأسوقها، (المقريزي، ١٩٧٥، ص. ٧٣١)، واما اجتياح تيمورلنك الثاني لمدينة بغداد سنة (٨٠٢ه/ ١٤٠٠م) صادف وقتذاك أضطربات الأحوال العامة في بغداد بسبب ثورة أمرائها على أحمد بن أويس وطرده، فتقدم تيمورلنك في ٢٦ ذي القعدة ٨٠٢ه/ ١٩ تموز ١٤٠٠م، واستولى على بغداد للمرة الثانية (حمود و سوزي، ٢٠١٠، ص١٠٢).

المغول في الشام وفلسطين:

زحف هولاكو بجيشه في أواخر عام ٦٥٧هـ ١٢٥٩م من بغداد نحو بلاد الشام وانضمت إليه قوات صليبية من جيش هيثوم ملك أرمينيا الصغرى وبوهيموند السادس أمير انطاكية الصليبية، وكان من المتوقع أن يتعاون مع التتار في عمل عسكري ضد المسلمين ولهذا رأى الطرفان ضرورة التعاون والتنسيق فيما بينهم للوقوف في وجه دولة المماليك الإسلامية التي كانت تمثل القوة الإسلامية الرئيسية التي هاجمها التتار والصليبيين، فأمر هولاكو باقامة ثلاثة جسور على نهر الفرات أحدها عند ملطية (القلقشندي، ص. ١٣١).

والثاني عند البيرة (أبن عبد الحق، ١٩٥٤، ص ص. ٢٤-٢٤١). والثالث عند قلعة الروم (مراصد الاطلاع، ص. ١١٨). وعبرت القوات المغولية نهر الفرات نحو الغرب بواسطة هذه الجسور، وفي الطريق قصد هولاكو ديار بكر ونزل على آمد (القلقشندي، ص ٣٢٣). وأرسل هولاكو إلى الملك السعيد نجم الدين ايلغازي صاحب ماردين (لسترنج، بلدان الخلافة، ص ص. ١٢٥-١٢٦).

يستدعيه إليه، ولكن الأخير أرسل ولده الملك المظفر قرا أرسلان وقاضي القضاة مهذب الدين محمد بن مجلي والأمير سابق الدين بلبان، ومعهم هدية ورسالة إلى هولاكو تتضمن الاعتذار إليه عن الحضور لمرضه، فلم يقبل هولاكو ذلك العذروعلل تأخره بخوفه من الملك الناصر يوسف صاحب الشام، ومن ثم حجز الرسل عنده وفيهم ولد صاحب ماردين ولم يسمح لهم بالعودة في حين أعاد القاضي بمفرده ليخبر الملك السعيد بما قاله هولاكو، فندم الملك السعيد على ارسال ولده إلى هولاكو وأخذ في الاستعداد لقتال التتار، وأرسل إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام يستحثه على الزحف بقواته إلى حلب، وأخبره الملك السعيد أنه، سيتقدم بقواته لينضم إليه لمواجهة العدو المشترك، وزحف التتار على ماردين وحاصروها فلم ينالوا منها شيئاً فتركوها وساروا إلى ميافارقين (القلقشندي، ص٣٢٠).. وحاصروا أهلها، وتولى حصار المدينة يشموط بن هولاكو وكان صاحبها الملك الكامل محمد بن الملك المظفر شهاب الدين غازي بن العادل أبي بكر بن أيوب.

ولقد صابر التتار واستمر على المقاومة سنتين حتى نفذت الأقوات وانتشر بين أهل ميافارفين الوباء والقتل مما يسر على التتار الاستيلاء على المدينة بعد حصار طويل وقتلوا الملك الكامل لموقفه الرافض للإستسلام، وزحف التتار بعدها نحو حران وبلاد الجزيرة ثم أمر هولاكو ولده يشموط بالزحف بقواته نحو الشام بعد أن زوده بجيش كثير العدد، فوصل إلى نهر الجوز (أبن عبد الحق، ص٣٦٧).

ثم وصل إلى تل باشر (مراصد الاطلاع، ص٢٦٩) ووصل الخبر بذلك إلى حلب من البيرة وكان يحكم حلب الملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين يوسف نائياً عن ابن أخيه الملك الناصر يوسف وجعل الناس من حلب إلى جهة دمشق واستعدت حلب أسوارها المحكمة البناء، فقصدها التتار في العشر الأخيرة من ذي الحجة عام ٦٥٧هـ/ نوفمبر ١٢٥٩م، وأرسل هولاكو انذاراً إلى صاحب حلب جاء فيه: إنكم تضعفون عن لقاء المغول ونحن قصدنا الملك الناصر والعساكر فاجعلوا لنا عندكم بحلب شحنة وبالقلعة شحنة ونتوجه نحن إلى العسكر، فإن كانت الكسرة على عسكر الإسلام كانت البلاد لنا وتكونون قد حقنتم دماء المسلمين... ونزلوا على قرية يقال لها سلمية (مراصد الاطلاع، ص٧٣١) وامتدوا الى جيلان، وهي من قرى حلب وسارت فرقة من جيش التتار إلى مدينة حلب نفسها حتى إذا أشرفوا عليها خرج أهلها في جمع كبير من العسكر والعامة، فلما رأوا التتار وهم في جمع كثير كروا راجعين إلى المدينة، اندفع المسلمون جميعاً نحو حلب والعدو يطاردهم فقتل من المسلمين عدد كبير، ثم رحل التتار بعد ذلك إلى عزاز (مراصد الاطلاع، ص٩٣٧).

وبعد ذلك عاد التتار إلى حلب وحاصروها حتى استولوا عليها وكان ذلك في التاسع من صفر ٦٥٨هـ/ يناير ١٢٦٠م إلا أنهم بعد أن ملكوها غدروا بأهلها وقتلوا ونهبوا وسبوا وأسروا النساء والذرية، واستباحوا المدينة مدة خمسة أيام حتى امتلأت الطرق والمسالك بجثث القتلى والدماء، قيل أنه أسر من حلب زيادة على مائة ألف من النساء والصبيان وهذا يوضح إلى أي حد بلغ الوهن بالمسلمين وما لحق بهم من قتل ونهب، أما الملك المعظم توران شاه بن السلطان صلاح الدين بن أيوب، فقد خرج لقتال هولاكو إلا أنه مات بعد أيام قليلة ودام حصارالتتار لقلعة حلب حتى اضطرت إلى التسليم بالامان يوم الإثنين الحادي عشر من ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ/ فبراير ١٢٦٠م (المقريزي، بردي، ص ص٤٢٢-٩١).

ويصف المقريزي ما حل بحلب بقوله: في المحرم نزل هولاكو على مدينة حلب وراسل متوليها الملك المعظم تورانشاه ابن الملك الناصر يوسف، على أن يسلمه البلد ويؤمنه ورعيته، فلم يجبه إلى طلبه وأبى إلا محاربته فحاصرها التتارسبعة أيام وأخذوها بالسيف وقتلوا خلقاً كثيراً وأسروا النساء والذرية ونهبوا الأموال مدة خمسة أيام استباحوا فيها دماء الخلق حتى امتلأت الطرقات من القتلى وصارت عساكر التترتمشي على جيف من قتل فيقال أنه أسر منها زيادة على، مائة ألف من النساء والصبيان وامتنعت قلعة حلب، فنازلها هولاكوأخذها في عاشرمن شهرصفر، وضربها وخرب جميع سورالبلد وجوامعها ومساجدها وبساتينها، حتى عادت موحشة (المقريزي، ص٤٢٢).

دخول التتار دمشق ٦٥٨ هـ:

فلما وصل الخبر إلى دمشق باستيلاء التتارعلى قلعة حلب وما جرى في المدينة من قتل وأسر وتخريب اضطربت دمشق بأهلها، وكان الملك الناصرقد صادر الناس، واستخدم لقتال التتر، فاجتمع معه ماياهز مائة ألف ما بين عرب وعجم... وترك دمشق خالية، وبها عامتها قد احاطت بالأسوار وبلغت اجرة الجمل سبعمائة درهم فضة (المقريزي، ص٤٢٢). وكان هذا الموقف بداية الوهن والضعف، وكان التتار يعمدون إلى استخدام العنف في البلاد الإسلامية التي فتحوها، أي أن يسبق الفزع من جيش المغول إلى البلاد الأخرى التي ينوون الاستيلاء عليها كما فعلت الجيوش الصليبية وكما تفعل القوات الصهيونية اليوم.

وصلت القوات المغولية بقيادة كتبغا إلى دمشق في السابع عشر من شهر ربيع الأول عام ٦٥٨هـ/ مارس١٢٦٠م، وكان اعيان دمشق قد تشاوروا في أمرهم بعد رحيل الملك الناصر يوسف، واتفقوا على ذهاب وفد من اعيان دمشق للقاء التتار فخرجوا والتقوا بهم وقرى ما معهم من الفرمان المتضمن الأمان، وبينما هم في طريق عودتهم من جهة الغوطة مارين من وراء الضياع إلى جهة الكسوة (بردي، ص٧٦).

كانت جموع التتار تتقدم نحو، دمشق، وهناك اجتمع نفر من المسلمين واشتبكوا مع التتار فأهلكهم العدو، ثم وصل في السادس والعشرين من ربيع الأول ٦٥٨هـ/ مارس ١٢٦٠م إلى دمشق منشور من هولاكو متضمناً تولية القاضي كمال الدين بن عمربن بندار التفليسي قاضياً ببلاد الشام والموصل وميافارفين وماردين والاكراد والأوقاف (المقريزي، ص ص٧٧-٢١٩). أما بالنسبة لقلعة دمشق فقد قاومت بشدة، فنصب التتار عليها المجانيق ثم تسلموها بالأمان في منتصف جمادي الأولى عام ٦٥٨ه/ ابريل ١٢٦٠م، ونهبوا ما فيها وخربوا سورها وأحرقوا آلاتها ثم هاجموا بعلبك وأخذوها وهدموا قلعتها ثم ساروا إلى مناطق أخرى.

«المبحث الثاني»

تعاون الصليبي، المغولي وأهدافهاالمسيحية في القرون الوسطى

أطلق إمبراطور بيزنطة (ألكسيوس الأول-١٠٤٨-١١١٨م (Komnenos I s'Alexi نداء استغاثة إلى البابا أوربان الثاني (١٠٤٢-١٠٩٩م) وعلى إثره انعقد المجمع الكنسي في كلرمونت (Clermont) في يوم ٢٧ تشرين الثاني عام (١٠٩٥م) وشارك عدد ضخم من رجال الدين، وحضر الفرسان والنبلاء، و(التجاروالحرفيون) هيج البابا أوربان الثاني الشعب في ساحة " كلير مونت"، تقدم الأسقف (أديمارفون بوي) نحو البابا وأعلن رغبته في أن يكون أول محارب، ورفع شعار (الحرب العادلة) تكون الحرب مبررة في استرداد ممتلكات منهوبة، حدد البابا أوربان الثاني شهر آب من عام ١٠٩٥م (قاسم، ١٩٩٨، ص ص١١٥-١٢٦). موعداً لبدء الحملة الصليبية الأولى (٤٩٠-٤٩٣ه/ ١٠٩٥-١٠٩٩م) ودعا الجنود المسلحين بالصليب إلى أن يخوضوا الحرب من أجل المسيح، وضمن لهم الصفح والغفران عن كل خطاياهم، وتشكلت المؤسسات التي تحمل الطابع الديني والعسكري ومن أشهرها فرسان الهيكل خطب البابا (أوربان الثاني) في الحشود المحاربة التي حملت الصليب القماشي الضخم وهم يصرخون "هذه إرادة الرب" Vult Lo Deus (هاغمن، ٢٠٠٥، ص ص٥٣-٥٤).

وقد حملوهما في يد، والسيف في اليد الأخرى، والصليب على جباههم وعلى صدورهم استجابة لمايحض عليه الإنجيل (انجيل، ٢٠١٠، ص٣٥). ووسع البابا (غريغروس الكبير) دائرة (الحرب العادلة) لتشمل إخضاع الوثنيين واعتبرها حرباً مقدسة، فالحروب الصليبية إذن ما هي إلا: حركة كبرى نبعت من الغرب المسيحي في العصورالوسطى، واتخذت شكل الهجوم الحربي الاستيطاني على بلاد المسلمين خاصة

بلاد، الشام ومصر بعد امتلاكها، فالحروب الصليبية إذن لها من اسمها نصيب، ما يجعل الصفة الدينية تسيطر عليها، يلخص لنا المؤرخ باركر أرنست هذا فيقول: "إن الحرب الصليبية تعبير في ذروة الإحياء الديني، وإن اعتبرت مقدسة فهي ليست إلانوعاً جديداً من الخلاص الذي يؤدي إلى السماء"(باركر، ١٩٩٦، ص. ٢٢).

ولابد من اجتياز هذه الطريق ابتغاء نيل السعادة، ولأجل غفران الذنوب خرج الحملة الصليبية الأولى في سنة (١٠٩٧م) إلى القسطنطينية، وفي سنة١٠٩٨م تم الاستيلاء على أنطاكية، وفي شهر تموز عام (١٠٩٩م) تم غزو القدس، ويعترف أستاذ اللاهوت الألماني لو فيغ هاغمن"(ليف لود، ٢٠٠٥، ص، ٥٣-٥٤) فيقول" إن حمام الدم الذي أقامه الصليبيون هناك يدع كل الدوافع الدينية المسيحية تتحول إلى كلام فارغ وجرى تحقيق الهدف العسكري لهذه الحملة وهو توطيد السيادة المسيحية في الشرق الأدنى، ونشأت أربع دول صليبية مملكة القدس وإمارة الرها ودوقيتا أنطاكية وطرابلس، وفي عامي (١١٤٧-١١٤٩م)، أعلن (البابا أوجين الثالث) الذي تولى كرسي البابوية (١١٤٥-١١٥٣م) الحملة الصليبية الثانية، (٥٤٣ه/ ١١٤٨م)، وحوصرت دمشق وانتهت هذه الحملة بالإخفاق.

وكان استعادة صلاح الدين الأيوبي لمدينة قدس من أيدي الصليبين سنة ٥٨٣ه/ ١١٨٧م، السبب في قيام الحملة الصليبية الثالثة بين عامي (١١٨٩-١١٩٢م)، وأخفقت وبقيت القدس في أيدي المسلمين وبين عامي (١٢٠٢-١٢٠٤م) قامت الحملة الصليبية الرابعة والتي دعا لها البابإنوسنت الثالث ومنيت بالإخفاق، والاستياء العام في الغرب الأوربي من استخدام بعض الحملات الصليبية ضد البيزنطيين المسيحيين عام١٢٠٤ بدلًامن التوجه لمحاربة المسلمين، ومن الحملات بالغة المأساوية في تاريخ الحروب الصليبية حملة الأطفال الصليبية في عام (١٢١٢م) إذا انتهت في "مرسيليا" (ليف لود، ٢٠٠٥، ص ص١٣١-١٣٥) اختفت آثارالأطفال

شحنوا على ظهر سبعة سفن غرقت اثنتان قرب "سردينيا"، ووصلت الأخرى إلى مرافئ في الجزائر، ومصر حيث أسروا وبيعوا كعبيد"(ديتر، ١٩٩٩، ص١٣٥).

ولقد نمت عند الصليبين إبان الحملة الصليبية الخامسة سنة١٢٢١م أسطورة، أن ملكاً مسيحياً مشرقياً قادم بقوة هائلة لاجتياح العالم الإسلامي من جهة الشرق اسمه: الأب يوحنا، ولم يكن في الحقيقة هذا الأب يوحنا سوى جنكيز خان، وتقدم الكتابات المسيحية المختلفة ثلاث روايات عن جنكيز خان أو الأب يوحنا أو الملك داود، الرواية الأولى، أنه الملك داود الابن الأصغر للملك إسرائيل بن الملك سيرجيوس بن الأب يوحنا، بن الملك بوغا المسيحي والرواية الثانية، أن جنكيز خان تزوج ابنة الأب يوحنا وأخذ مكانه، والرواية الثالثة، وهي أن الأمير المغولي جنكيز خان تسلق جبلاً عالياً وشهد تجلي سيد العالم يسوع المسيح الذي علمه العدل والدين القويم (مورغان، ١٩٩٩، ص ص٢١٣-١٥).

وكانت الحملة الصليبية الخامسة تحاصر مدينة " دمياط المصرية "عند مصب الذراع الأيمن لنهر النيل، وهذه الحملة الصليبية شاركت فيها البابوية الكنسية بفعالية أكثر من غيرها من الحملات، وقد كادت تشكل نقطة تحول في التاريخ الأوروبي ثم تحولت، فجأة إلى هزيمة كبرى، قليلاً ماعرفت لها أوروبا مثيلاً" (ريتشاردسوذرن، ١٩٨٥/ ٢٠٠٦، ص ص٨٨-٢١٣)، ثم خلفه حفيده هولاكو الذي وصل واجتاح بغداد سنة (٦٥٦ه/ ١٢٥٦م)، وأن حملات المغول هذه، لم تأتي من فراغ، وإنما بدعوة وتنسيق مع مسيحيي أوروبا، للإطباق على العالم الإسلامي من شرقه بواسطة المغول، ومن غربه بواسطة الحملات الصليبية للقضاء عليه، تذكر بعض المصادر أن زوجة، هولاكو، كانت نصرانية أيضاً.

وهذا يدل على استمرار العلاقة والصلة مع المسيحين، عندما توفي هولاكو وزوجته دقوزخان حزن العالم النصراني كثيرا وقد كتب اسطيفان أوريليان وعدُّهولاكو وزوجته بمنزلة قسطنطين وهيلانة لما قامابه من خدمة للنصارى (مصطفى زدة، ص٩٥٤)،

مثلت قضية التحالف الصليبي المغولي ضد العالم الإسلامي واحدة من أخطر القضايا والتحديات إذ شهدت تغيرات كثيرة على خارطتها السياسية زوال الدولة الخوارزمية – والدولة العباسية، على يد المغول بحيث لفت انتباه الصليبيين الذين وجدوا التحالف مع المغول أفضل وسيلة لإنقاذالامارات الصليبية، وكانت نظرة الصليبين الأوربيين للمغول لا تعدو عن كونهم برابرة مخربين ووحوش متعطشة للدماء، في حين نظر المغول في بداية أمرهم للأوروبيين وذلك من خلال تعاملهم مع فراءهم نظرة الأتباع نظراً للانتصارات التي حققوها٠

وكان عمل القائد المغولي كيوك إدراكا منه لأهمية ما يعرضه عليه الصليبيون، ورغبة في استغلاله لصالحه، فقام نائبه على القوقاز وفارس– جغطاي خان– بعرض عقد تحالف مغولي صليبي مع الملك الفرنسي لويس التاسع عام (٦٤٦ه/ ١٢٤٨م) ضد الخلافة العباسية والأيوبيين والمماليك في الشام، وذلك خلال مرور لويس التاسع بقبرص في طريقه لغزو دمياط بمصر.

وكان رسولاه إليه راهبين نسطوريين هما داود ومرقص، وقصده– أي جغطاي– من ذلك إشغال المماليك عن نجدة الخلافة العباسية، التي كان ينوي مهاجمتها (عاشور، ص. ١١٠٠)، فوصل الوفد بعد وفاة هذا الخان (٦٤٤ هـ/ ١٢٤٨م)، كان المغول يريدون إخضاع الصليبيين لسلطانهم بدليل عندما ارسل لويس ملك فرنسا هدية على شكل كنيسة إلى كيوك وطلب منه الدخول في المسيحية في المقابل طالبتهم أرملته بالطاعة لها مع إرسال المزيد من الهدايا على أنها جزية، ولهذا لم يكن التحالف بينهما واضح ومبدئي.

واما موقف منكوخان (٦٤٦–٦٥٥ه/ ١٢٤٨ –١٢٥٧م) من محاولات الصليبين للتحالف، استقبل منكوخان خليفة كيوك خان، وفد لويس التاسع بفتور، حيث إنه لم يكن ميالا للتعاون معه (عاشور، ص ١١٠٠)، ولكن هذا الاستقبال لم يدفع لويس التاسع إلى اليأس، فكرر المحاولة بعد أن هزمه المصريون في المنصورة وأرسل رسولا

آخر إلى منكوخان هو وليم روبروك William of rubruck الراهب الفرنسيسكاني - فوصل العاصمة قرة قوروم، التي كانت تعج بالكثيرين من رسل الملوك والأمراء الذين جاؤوا يطلبون صداقة الخان الجديد، والتحالف معه، ويظهرون له الطاعة ويخطبون وده، وكان شرط منكوخان للاستجابة لطلب لويس التاسع أن يخضع الملك لويس له فعاد الرسول خائبا في هذه السفارة أيضا، إلا أن هذا الرسول سمع في قرة قوروم أثناء إقامته بها أخباراً تفيد أن المغول ينوون مهاجمة بلاد الخلافة العباسية والاستيلاء على بغداد نفسها، فبادر لدى عودته إلى عكا بإرسال الخبر إلى لويس التاسع الذي كان قد غادرها إلى فرنسا، وقام هيثيوم الأول ملك أرمينية الصغرى بمثل ما قام به لويس التاسع من تودد لمنكوخان، حيث أرسل أخاه سمباد على رأس سفارة إلى عاصمة المغول عام (٦٤٥-٦٤٦ه/ ١٢٤٧ -١٢٤٨م) (عاشور، ص. ١١٠٢)، ثم أتبعها بزيارة شخصية قام بها بنفسه للتأكيد على ولائه لمنكوخان وأصبح تابعا له (Setton، 1957، p 572).

بالإضافة لما ذكره بعض المؤرخين من اتصالات قليله كانت تحدث أحيانا بين الصليبيين بالشام والمغول بقصد شن هجمات محدودة على المسلمين (عاشور، ص ١١١١)، كما حدث عندما أغار الفرنجَ على قاقون بمواعدة التتار (المقريزي، السلوك ص ٦٠٠)،، وخلف كوبيلان خان (٦٥٥- ٦٩٣هـ/ ١٢٥٧-١٢٩٤م)، منكوخان في زعامة المغول العظمى، وفي عهده قام هولاكو خان- وكان وثنيا- باجتياح بلاد خوارزم والاستيلاء على عاصمة الخلافة العباسية بغداد، حيث ارتكب المغول فيها من المجازر، ومع ذلك فلم يقدم على إيذاء النصارى من أهل بغداد بل وضعهم تحت حمايته، وأجاز جاثليقهم النسطوري ووهبه منزل الدفتردار الصغير (Howorth، ١٩٨٨، ص ٢٠٨) وذلك لميله لهم ولتأثير زوجته النصرانية النسطورية دكوزخان (ابن الكثير، ١٢٦٠، ص ٢٤٨).

كما أقر فعله ابنه أبغا الذي خلفه من بعده (Howorth، ١٩٨٨، ص ص ٢٠٨-٢١١) وقد قدر الصليبيون ذلك فتعاونوا مع المغول في اجتياحهم لبلاد المسلمين حتى اتخذت هذه الحملة طابع الحملة الصليبية، فاشتركت فرقة من الأرمن مع المغول في غزو ميافارقين وساهموا في ذبح سكانها من المسلمين والحفاظ على النصارى من سكانها، واشترك هيثيوم الأول، ملك أرمينية الصغرى في وضع خطة غزو بلاد الشام، وطلب منه هولاكو أن يلاقيه بجيشه عند الرها، ليصحبه معه إلى بيت المقدس فيخلصها من أيدي المسلمين ويسلمها للصليبيين (عاشور، ص ١١٠٣) وشارك في هذا التأييد للغزو المغولي بوهيمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس الصليبي وزوج ابنة هيثيوم الأول (Setton، ١٩٥٧، ص ٥٧٢)، والبابا اسكندر الرابع الذي أرسل سنة ٦٥٨هـ -١٢٦٠م إلى هولاكو يهنئه على بطولاته ويدعوه للدخول في النصرانية (Howorth، ١٩٨٨، ص ص ٢٠٨-٢١١).

وسارع مطران اليعاقبة في حلب إلى لقاء هولاكو وبذل جهده في استعدائه على المسلمين، لذلك لم يقم هولاكو بالاعتداء على نصارى حلب، ولم يتعرض لكنيسة اليعاقبة في الوقت الذي أحرق فيه مسجدها وذبح معظم أهلها من المسلمين بتحريض من حليفه ومرافقه الصليبي هيثيوم الأول (أبو الفداء، ١٢٦٠)، وأرسل رسالة تهديد إلى قطز جاء فيها: "من ملك الملوك شرقاَ وغرباَ القائد الأعظم... يعلم... قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم... أنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه... وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء... ونحن لا نرحم من بكى ولا نرق لمن شكا... فأبشروا بالمذلة والهوان... فقد حذرمن أنذر، وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة.

وقد ثبت عندنا إنكم الفجرة... " فغضب قطز وقطع رؤوس أعضاء الوفد ما عدا صبي استبقاه مملوكا له (المقريزي، السلوك، ١٢٦٠ ص ص. ٤٢٧-٤٢٨)، ولكن رشيد الدين الهمداني أورد نصا آخراً لهذه الرسالة تضمن نفس المعنى، وذكر أن قطز

قتل رسل هولاكو بناء على مشورة بيبرس (الهمذاني، ص٣١١-٣١٤)، وعندما اضطر هولاكو للعودة إلى الشرق مستخلفا على معظم جيشه قائده كتبغا المشهور بميله للنصارى (ابن الكثير، ١٣٧٢ ص٢٣١)، لإكمال مهمته في اجتياح بلاد الشام ومصر، قام هيثيوم الأول ملك أرمينية الصغرى وصهره بوهيمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس بمرافقته، ودخلا معه مدينة دمشق، وطلبا منه أن يغلق مساجدها وأن يحول بعضها إلى كنائس، فأجابها إلى طلبهما رغم استعطاف المسلمين (المقريزي، السلوك، ١٢٦٠ ص ص٤٢٧-٤٢٨).

وبعد أن قرأنا في المبحثين السابقين، تقاطع مصالح، وأهداف الحملات الحملات المغولية القادمة من الشرق، مع الحملات الصليبية القادمة من الغرب، لما يزيد على قرنين ونصف من الزمن علينا ان نذكر أسباب فشل وانهيار التحالف المغولي الصليبي منها: - صور الماضي ووحشية المغول القاتمة التي توارثتها شعوب الغرب لها كانت دورًا في أنهيار مشروع التحالف مع المغول، الذي أعمل السيف في رقاب الشعوب التي كانت تقطن ما بين هنغاريا شرقًا وفرنسا غربًا قبل سنوات، فضلاً عن الأختلاف في الاهداف والرؤية، حيث كان من أهداف البابا نشرالمسيحية الكاثوليكية في بلدان الشرق الأقصى، وتنصير المغول، والاعتراف بسيادة البابا الروحية، في حين كان من أهداف خان المغول إقامة إمبراطورية، وأنه سيد العالم دون منازع تدين شعوبها بالولاء والطاعة له وسلطته مستمدة من السماء، في حين كان البابا يعتبر نفسه صاحب السلطة الروحية، وبيده سلطة الغفران وهو صاحب الحق في تتويج الملوك وعزلهم، التي هي فوق أي سلطة.

الخاتمه ونتائج البحث

أسفرت الدراسة عن نتائج يمكن إجمالها على النحو الآتي:

١) لقد نمت عند الصليبين إبان الحملة الصليبية الخامسة سنة١٢٢١م أسطورة، أن ملكاً مسيحياً مشرقياً قادم بقوة هائلة لاجتياح العالم الإسلامي من جهة الشرق اسمه: الأب يوحنا، ولم يكن في الحقيقة هذا الأب يوحنا سوى جنكيز خان.

٢) أتخذ غزو المغول لبلاد الإسلام طابعاً صليبياً ذلك أن زوجة هولاكو وأمه كانتا مسيحيتين على المذهب النسطوري، الأمر الذي جعل هولاكو يعطف على النصارى في بلاد الشام بقدر ماقسا على المسلمين في بلاد الشرق.

٣) أتصل الصليبيون بالمغول واستثاروهم ضد المسلمين فاتصل ملك أرمينية بهولاكو ورسم خطة غزو المغول لبلاد الشام وانتزاع بيت المقدس من المسلمين ليتسلمها المسيحيون.

٤) كان المغول يريدون إخضاع الصليبيين لسلطانهم، لم يكن التحالف بينهما واضح ومبدئي.

٥) زوال الإعتقاد بأن المغول قوم لايغلبون، وإذا كان المغول هاجموا بلاد الإسلام منذ عام ٦١٦ه واستمروا في تقدمهم حتى أسقطوا الخلافة العباسية عام ٦٥٦ه/ ١٢٥٨م، وزحفوا إلى بلاد الشام وتمكن المماليك بقيادة سلطان قطز من الانتصار على المغول في معركة عين جالوت بفلسطين ٦٥٨ه/ ١٢٦٠م، مما ضعف أمل الصليبيين في التعاون مع المغول ضد المسلمين ببسبب ظهور قوة دولة المماليك.

المصادر والمراجع

اولا: المصادر

١) ابن الأثيرا، لكامل في التاريخ، علي بن أحمد بن عبد الكريم، دار الفكر، (ت٦٣٠ه/ ١٢٣٢م) (بيروت ١٩٧٨م).

٢) أبن تغري بردي، جمال الدين أبو محاسن يوسف، (ت٨٧٤ه/ ١٤٦٩م) النجوم الزاهرة في ملوك مصر (القاهر، ١٩٦٣م).

٣) الجوزجاني، أبو عمر منهاج الدين عثمان بن سراج الدين (ت٦٦٠ه/ ١٢٦٢م)، طبقات ناصري، نشر وليم ناسوليس، مولوي خادم حسين، ١٨٦٤م.

٤) الجويني: علاءالدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد بن محمد الجويني، تاريخ جهانكشاي، در مطبعئ بريل درليدن/ ١٣٢٩.

٥) حميري، أبوعبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِميرى (ت ٧٢٧ هـ - ١٣٣٠م، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق، إحسان عباس، ط٢، مؤسسة ناصرللثقافة (بيروت – ١٩٨٤م).

٦) الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت ٧٤٨هـ - ١٣٤٧م).

٧) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والآعلام، تحقيق، محمد مصطفى عبدالقادرعطا، ط١، دارالكتاب العربي، بيروت (لبنان ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٥م).

٨) سير أعلام النبلاء، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٩٨٥م.

٩) رشيد الدين الهمذاني، فضل الله بن عماد الدولة موفق الدولة الهمذاني (ت٧١٨ه/ ١٣١٨م).

١٠) جامع التواريخ، تاريخ المغول، مجلد٢، ج١، (تاريخ هولاكوخان) نقله عن الفارسية إلى العربية محمد، صادق نشأت، محمد موسى هنداوي، (القاهرة، ١٩٦٠م).
١١) سبط ابن الجوزي: أبو المظفر يوسف بن قزغلي بن عبد الله، البغدادي (ت ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦ م)، مرأة الزمان في تأريخ الأعيان، حيدر أباد، الهند، ١٩٥١م.
١٢) السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م).
١٣) تأريخ الخلفاء، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد (بغداد -١٩٨٧م).
١٤) أبن شاكر الكتبي: فخر الدين محمد بن شاكر (ت٧٦٤ه/ ١٣٦٢م).
١٥) فوات الوفيات، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر بيروت-١٩٧٣-١٩٧٤م.
١٦) أبن عبد الحق: صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، (ت ٧٣٩ ه/ ١٣٣٨م)
١٧) مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع، تحقيق، علي محمد البجاوى، دار إحياء الكتب العربية، ط١، القاهرة، 1957 م.
١٨) أبن العبري: هو أبو الفرج جمال الدين غريغوريوس بن هرون بن توما الملطي (ت٦٧١ه/ ١٢٨٦م).
١٩) ابن العماد الحنبلي ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، تاريخ مختصر الدول، الطبعة الكاثوليكية، ط٣، بيروت، ١٩٥٨م.
٢٠) شذرات الذهب في أخبار من ذهب المجلد السابع (الطبعة الأولى)، دارابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، عمان - الأردن.
٢١) أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل الأيوبي (٦٧٢ - ٧٣٢ هـ/ ١٢٧٣ - ١٣٣١م)، المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة، (بيروت د. ت).

٢٢) أبن الفوطي: كمال الدين عبد الرزاق (ت٧٢٣ ه/ ١٣٢٣م)، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، نشرمصطفى جواد، بغداد-١٩٣٢م.
٢٣) القلشقندي: أبو العباس أحمد (ت ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م)، صبح الاعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩١٤- ١٩١٥م.
٢٤) أبن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت ٧٧٤ه/ -١٣٧٣م)، البداية والنهاية، تحقيق حامد أحمد طاهر، دار الفكرالعربي، القاهرة-٢٠٠٢م.
٢٥) المقريزي: تقي الدين احمد بن علي المقريزي (ت٨٤٥ ه/ ١٤٤١م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة، دار الكتب (المصرية، ١٩٧٢م).
٢٦) أبن الوردي، زين الدين عمر بن مصطفى (ت٧٤٩هم١٣٤٨م)، تاريخ ابن الوردي المسمى (تتمة المختصر في أخبار البشر)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م، ط، النجف، ١٩٦٩م.

ثانيا: المراجع

٢٧) أرنست باركر، الحروب الصليبية، ترجمة، الباز العريني، دار النهضة العربية، (بيروت، ١٩٩٦م).
٢٨) حمود، سوزي الفاطميون والزنكيون والأيوبيون والمماليك وصراعهم حول السلطة في المشرق العربي (٣٦٢-٩٢٣ه/ ٩٧٣-١٥١٧م) تقديم، عصام شبارو، دارالنهضة، ط١، ٢٠١٠م.
٢٩) ديتر تسمر لنغ النهايات، الهوس القيامي الألفي، ترجمة ميشيل كيلو، دارقدمس للنشر والتوزيع، ط١، (دمشق، ١٩٩٩م).
٣٠) ديفيد مورغان، الأب يوحنا والمغول، دار قدمس للنشروالتوزيع، (دمشق، ١٠٠٥م).

٣١) ريتشار دسوذرن، صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، ترجمة، رضوان السيد، دارالمدى الإسلامي، ط٢، (بيروت، ٢٠٠٦م).
٣٢) سيرتوماس. و. أرنولد، الدعوة إلى الإسلام: ترجمة العربية، محسن إبراهيم حسن، ط٢، (دمشق، ٢٠٠٥م).
٣٣) طقوش، محمد سهيل، تاريخ الأيوبيون في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة ط٢ بيروت لبنان١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.
٣٤) عاشور، سعيد عبد الفتاح الحركة الصليبية صفحة مشرفة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، ط١، ١٩٦٣م.
٣٥) عبد القادر أحمد يوسف، علاقات بين الشرق والغرب في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، منشورات الكنيسة العصرية، صيدا بيروت
٣٦) وود، فرنسيس. (١٩٩٩). ماركو بولوهل وصل إلى الصين، ترجمة فاضل جتكر. دار قدمس للنشروالتوزيع. دمشق، ط١، دمشق.
٣٧) قاسم، عبده قاسم الخلفية. (١٩٩٨). الأيدلوجية للحروب الصليبية. دارالمعارف، القاهرة.
٣٨) هاغمن، ليف لود فيغ. (٢٠٠٥). مسيحية ضد الإسلام حوار انتهى إلى الإخفاق، ترجمة محمد جديد. دارقدمس للنشر والتوزيع، ط٢. دمشق.
٣٩) الأب مايكل برير. (٢٠٠٥). الكتاب المقدس والاستعمار والاستيطاني، ترجمة أحمد الجمل، دار قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ط١.
٤٠) مصطفى طه بدر، محنة الإسلام الكبرى، دار الفكر العربي.
٤١) مغول إيران بين المسيحية والإسلام، دار الفكر العربي.

ثالثا: المصادر والمراجع الأجنبية

1) Arnold, T. W. (1935). The preaching of Islam, 3rd ed. Trans. by. Regnold Nicholson. London.
2) Runciman, S. (1957). A history of the crusades. Cambridge.
3) Howorth, Henry. (1988). History of Mangols, Ill. London.
4) Setton, k. m. (1958). A history of crusades. Pensylvania.